النص الكامل

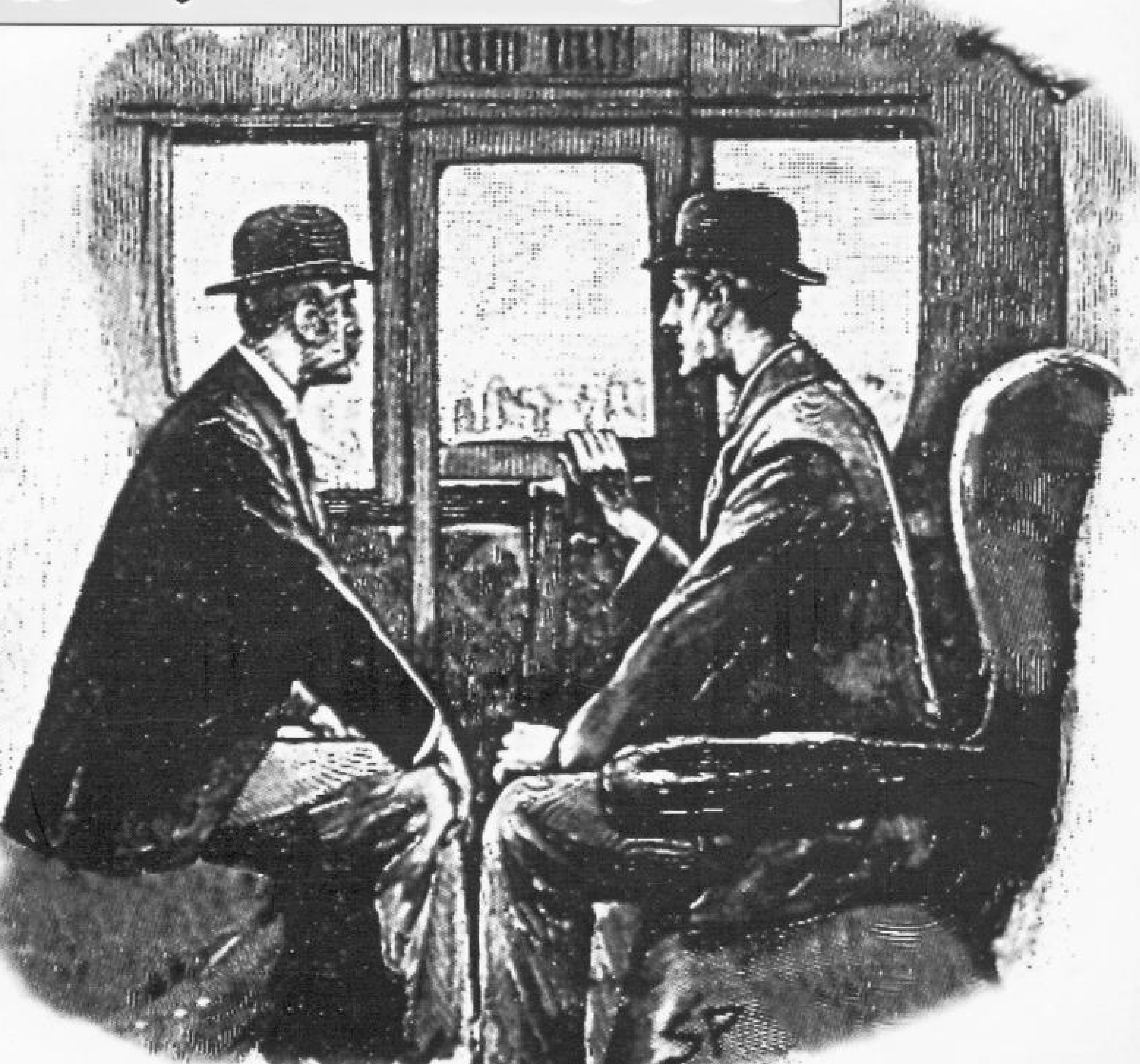
مغامرات

شيرلوك هولمز

٢٣

تأليف:
آرثر كونان دويل

وثائق المُعاهدة البَحريّة



بالرسومات الأصلية

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات

شيرلوك هولمز

(١١)

وثائق المُعاهدة البَحريّة

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيَال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

وثائق المُعاهدة البَحريّة

خلال سنوات دراستي المدرسية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بفتى اسمه بيرسي فيلبس، وكان في مثل عمري بالرغم من أنه كان يسبقني بعامين دراسيَّين، إذ كان ولداً عبقرياً حتى إنه حصل على كل الجوائز التي تقدّمها المدرسة، ثم أنهى مآثره بحصوله على منحة دراسية أرسلته إلى جامعة كامبردج لإكمال مسيرته الناجحة. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان عدد من أقاربه من ذوي النفوذ، حتى عندما كنا أولاداً صغاراً عرفنا أن خاله هو اللورد هولد هورست السياسي المحافظ العظيم، ولكن هذه العلاقة المبهرة لم تُفِده في المدرسة إلا قليلاً، بل على العكس، فقد كنا نستمتع بمطاردته حول الملعب ونحن نضربه بعِصِيّ الكريكيت! لكن الأمر تغيّر حين خرج إلى الحياة العملية؛ فقد سمعت أن قدراته وعلاقاته قد مكنته من الالتحاق بمركز جيد في وزارة الخارجية، وبعد ذلك نسيته تماماً حتى وصلني الخطاب التالي ليذكّرني بوجوده:

منزل برياربري، ووكِنْغ

عزيزي واطسون،

لست أشك أدنى شك في أنك ستتذكر الضفدع الصغير فيلبس، ذلك الذي كان في الصف

الخامس عندما كنتَ أنت في الصف الثالث، ومن الممكن أن تكون قد سمعت أنني قد حصلت على مركز جيد في وزارة الخارجية بفضل نفوذ خالي، وأنني كنت محلّ ثقة واحترام حتى دمر سوءُ حظّ رهيب مسيرتي العملية فجأة!

لا فائدة من كتابة تفصيلات هذا الحادث الفظيع، حيث إنني من المحتمَل أن أُضطرّ إلى سرد الأحداث عليك إذا استجبت إلى طلبي. لقد تعافيت لتوّي من حُمّى في الدماغ استمرّت لمدّة تسعة أسابيع، وما زلت ضعيفاً لدرجة كبيرة، فهل تظن أن باستطاعتك إحضار السيد شيرلوك هولمز إلى هنا ليراني؟ فأنا أحب أن أعرف رأيه بهذه القضية، بالرغم من تأكيد السلطات لي بأنه لا جديد يمكن عمله، فأرجو منك أن تحاول إحضاره بأقرب وقت ممكن، فكل دقيقة تمر عليّ وأنا في هذه الحالة من الترقّب الفظيع تبدو كساعة طويلة. وأرجو أن تؤكّد له أنني إن لم أكن قد سعيت لطلب نصيحته قبل الآن فقد كان ذلك لأنني كنت في غيبوبة منذ وقوع النكبة وليس لأنني لا أقدّر مواهبه، أما الآن فقد بدأت أستعيد رشدي ثانية، ولكنني لا أجرؤ على التفكير في الأمر كثيراً خوفاً من حدوث انتكاسة.

أنا ما زلت ضعيفاً حتى إنني أكتب إليك عن

طريق الإملاء كما ترى. أرجو أن تحاول إحضاره.

زميلك القديم في المدرسة: بيرسي فيلبس

مسّ هذا الخطاب مشاعري وأنا أقرؤه، إذ كان في رجائه المتكرر بإحضار هولمز شيء مثير للشفقة، وقد بلغ من تأثري أنني فكرت بتنفيذ هذا الطلب رغم صعوبته. كنت أعلم بالطبع أن هولمز يحب فنّه العقلي، ولذلك فهو مستعدّ دائماً لتقديم المساعدة بنفس درجة استعداد عملائه لتلقّيها، وقد وافقتني زوجتي على أن لا أضيّع دقيقة أخرى قبل عرض الأمر عليه، وهكذا وجدت نفسي متجهاً إلى المسكن القديم في شارع بيكر مرة أخرى بعد الإفطار بساعة.

كان هولمز جالساً إلى طاولته مرتدياً رداءه المنزلي وهو يعمل بجد في تجرِبة كيميائية، وقد راح إناء كبير ذو أنبوب تقطير يغلي بشدّة على الشعلة الزرقاء لموقد البنزين، والقطرات المرشَّحة تتكثف في قدر سعته لتران. بالكاد رفع صديقي رأسه عندما دخلت، وعندها أدركت مدى أهمية تجربته، فجلست في مقعد مريح ذي ذراعين وانتظرت فيما كان هولمز يأخذ بضع قطرات من هذا الإناء أو ذاك بماصّته الزجاجية... وأخيراً قرّب إلى الطاولة أنبوبَ اختبار يحتوي على محلول، وكان ممسكاً بورقة عبّاد

الشمس في يده اليمنى وقال: لقد أتيت في الوقت الحاسم يا واطسون، فلو ظلّت هذه الورقة على لونها الأزرق فكل شيء على ما يرام، أما إذا تغيّر لونها إلى الأحمر فسيكون معنى ذلك إنقاذ حياة رجل.

غمس هولمز الورقة في أنبوب الاختبار فتوهّجت على الفور بلون قرمزي باهت، فصاح: آه، هذا ما ظننته. سأكون في خدمتك خلال لحظة يا واطسون.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

اتجه إلى مكتبه وكتب بسرعة عدّة برقيات ثم سلمها إلى البوّاب لإرسالها، وبعد ذلك ألقى بنفسه على الكرسي المقابل لي ورفع ركبتيه حتى تشابكت أصابعه حول ساقيه الطويلتين الرفيعتين ثم قال: إنها جريمة قتل بسيطة مبتذَلة. أظن أن عندك ما هو أفضل، فغالباً ما ينبئ قدومك بوجود جريمة. ما الأمر يا واطسون؟

أعطيته الخطاب فقرأه بانتباه شديد، ثم علّق قائلاً وهو يعيده إليّ: إنه لا يخبرنا بالكثير، أليس كذلك؟

- لا شيء تقريباً.

- وبالرغم من ذلك فالخطّ مثير للاهتمام.

- ولكنه ليس خطّه.

- تماماً، إنه خط امرأة.

صحت قائلاً: الخطّ لرجل بالتأكيد.

- لا، بل خطّ امرأة، وهي امرأة ذات شخصية نادرة. يجب أن تفهم أنه من الجيد في بداية كل تحقيق أن تعرف إذا ما كان عميلك على صلة وثيقة بشخص له طبيعة استثنائية، سواء أكان ذلك للخير أم للشرّ. لقد أثرتَ اهتمامي بالقضية؛ لنذهب حالاً إلى ووكنغ -لو كنتَ مستعداً- لنرى الدبلوماسي الذي تورّط في

هذه القضية الشريرة، ونرى السيدة التي يملي عليها خطاباته.

* * *

حالفَنا الحظ بما فيه الكفاية لنلحق بقطار مبكّر من محطة واترلو، وفي أقلّ من ساعة وجدنا أنفسنا وسط غابات الصنوبر ومروج ووكنغ، وكان «برياربري» منزلاً واسعاً منفصلاً يقع في أراض ممتدّة على بُعد دقائق نمشيها من المحطة. وبعد أن قدمنا للبوّاب بطاقات التعريف أدخلنا إلى قاعة استقبال مجهَّزة بأناقة، وخلال دقائق قليلة دخل علينا رجل يميل إلى البدانة وقام باستقبالنا بحفاوة كبيرة. كان عمره أقرب إلى الأربعين منه إلى الثلاثين، وكان ذا وجنتين متوردتين وعينين مبتهجتين، حتى ليكاد يعطي انطباعاً بأنه ولد مفعم بالحيوية والنشاط!

قال الرجل وهو يصافحنا بانفعال مبالَغ فيه: أنا سعيد جداً بقدومكما، فقد كان بيرسي يسأل عنكما طوال فترة الصباح. يا للفتى المسكين! إنه يتعلّق بأية قشة، وقد طلب مني والداه أن أنوب عنهما في استقبالكما لأن أقل ذكر للموضوع يؤلمهما أشد الألم.

علّق هولمز قائلاً: لم نعرف التفصيلات بعد، ولكنني ألاحظ أنك لست فرداً من أفراد العائلة.

بدت الدهشة على وجه مرافقنا، ثم ألقى بنظرة خاطفة نحو الأسفل وبدأ بالضحك وهو يقول: لقد ظننت لوهلة أنك قمت بشيء بارع! بالطبع لقد رأيتَ الحرفين الأوّلين من اسمي «ج هـ» محفورَين في قلادتي. اسمي هو جوزيف هاريسون، ولأن بيرسي على وشك الزواج بأختي آني فيمكن اعتباري قريبَه عن طريق النسب. ستجد أختي في غرفته حيث قامت بتمريضه بتفانٍ كبير طوال الشهرين الماضيين، فلنذهب إليه في الحال لأنني أعرف مبلغ القلق الذي يشعر به.

كانت الغرفة التي قادنا إليها في نفس الطابق الذي توجد فيه قاعة الاستقبال، وقد دل أثاثها على أنها تُستعمَل غرفةً للجلوس في جزء منها وغرفةً للنوم في الجزء الآخر، وقد انتشرت الزهور المنسَّقة في كل زاوية فيها، في حين استلقى شابّ منهَك شاحب الوجه على الأريكة بجوار النافذة المفتوحة التي انسابت منها روائح الحديقة الغنيّة ونسمات الصيف المنعشة.

وقفت المرأة الجالسة بجواره عندما دخلنا إلى الغرفة وسألته قائلة: هل تريدني أن أغادر الغرفة يا بيرسي؟

أمسك بيدها بشدّة ليمنعها من الذهاب وقال بحرارة: كيف حالك يا واطسون؟ لم أكن سأعرفك

أبداً بهذا الشارب. هذا هو صديقك المشهور السيد شيرلوك هولمز على ما أظن؟

قدّمت هولمز بكلمات قليلة ثم جلسنا، وتركَنا الشابّ البدين لكن شقيقته بقيت في الغرفة ممسكة بيد المريض. كانت امرأة شديدة الجمال وإن كانت قصيرة وممتلئة قليلاً، ولكنها تتمتع ببشرة نضرة وشعر كثيف شديد السواد وعينين واسعتين داكنتين كعيون أهل إيطاليا، وقد أظهر الفرق الكبير بين نضارتها وشحوب وجه رفيقها مدى إرهاقه وهزاله.



Sydney Paget 1893 — رسم سدني باجيت ١٨٩٣

قال وهو يرفع نفسه على الأريكة: لن أضيع وقتكما؛ سأدخل في الموضوع دون المزيد من المقدّمات. لقد كنت رجلاً سعيداً وناجحاً يا سيد هولمز وعلى وشك الزواج حين دمّرت هذه المحنة المفاجئة كل آمالي في الحياة؛ فقد كنت أعمل في وزارة الخارجية، ربما أخبرك واطسون بذلك، ومن خلال نفوذ خالي اللورد هولد هورست ارتقيت بسرعة، وعندما صار خالي وزيراً للخارجية كلفني بعدد من المهمات التي تحتاج إلى قدر كبير من الثقة، ولأنني كنت أنجز هذه المهمّات بنجاح دائماً فقد اقتنع خالي أخيراً بأن يضع ثقته القصوى في قدراتي وأساليبي. ومنذ عشرة أسابيع تقريباً وفي الثالث والعشرين من أيار (مايو) على وجه الدقّة استدعاني خالي إلى مكتبه الخاص، وبعدما امتدح العمل الجيد الذي قمت به أخبرني أن عليّ تنفيذ مهمة جديدة. قال وهو يأخذ بيده لفّة من الورق الرمادي عن مكتبه: "هذا هو أصل المعاهدة السرّية بين إنكلترا وإيطاليا، ويؤسفني القول بأن بعض الشائعات قد تسربت إلى الصحافة بالفعل، ومن المهم جداً أن لا يتسرب شيء آخر عنها، فالسفارتان الفرنسية والروسية مستعدّتان لدفع مبالغ ضخمة لمعرفة محتوى هذه الأوراق، ولم تكن هذه الأوراق لتغادر مكتبي لولا أن نسخها ضروري جداً. هل تملك أدراجاً في مكتبك؟"، قلت: "نعم يا

سيدي". قال: "فلتأخذ هذه المعاهدة إذن وتغلق عليها هناك، وسأعطي الأوامر لتبقى بعد مغادرة الآخرين حتى تستطيع نسخها على راحتك دون الخوف من أن يراها أحد، وعندما تنتهي أعِد إغلاق درج مكتبك على النسختين الأصلية والمنسوخة، ثم سلمهما إليّ شخصياً غداً صباحاً". وهكذا أخذت الأوراق، ثم...



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قال هولمز مقاطعاً: اعذرني للحظة، هل كنتما بمفردكما طوال هذه المحادثة؟

- تماماً.

- في غرفة واسعة؟

- تكاد تبلغ عشرة أمتار طولاً ومثلها عرضاً.

- وهل كنتما تتكلمان بصوت منخفض؟

- صوت خالي منخفض دائماً بشكل ملحوظ، وأنا لم أتكلم تقريباً.

قال هولمز وهو يغمض عينيه: شكراً لك، أرجو أن تكمل.

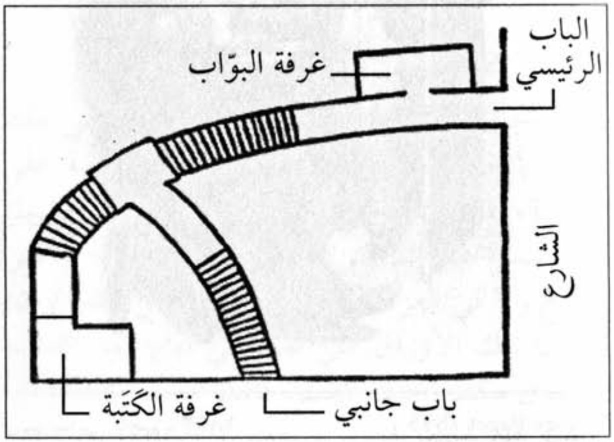
استطرد قائلاً: فعلت ما أشار خالي به تماماً وانتظرت حتى غادر باقي الموظّفين. وكان أحد زملائي في المكتب، وهو تشارلز غورو، كان عنده بعض الأعمال المتأخرة فتركته هناك وخرجت لتناول الغداء، وعند عودتي كان قد ذهب، وقد كنت متلهفاً لإنهاء عملي لأنني كنت أعرف أن جوزيف (وهو السيد هاريسون الذي رأيتموه منذ لحظات) كان في المدينة، وعلمت أنه سيسافر إلى ووكنغ في قطار الحادية عشرة فأردت اللحاق به إذا استطعت.

عندما درست المعاهدة تبيّن لي على الفور أنها في

غاية الأهمية وأن خالي لم يبالغ فيما قاله، ودون الخوض في التفصيلات يمكنني القول بأن المعاهدة تحدّد موقف بريطانيا العظمى تجاه التحالف الثلاثي وتتنبأ بالسياسة التي ستتبعها هذه الدولة في حالة قيام الأسطول الفرنسي بالسيطرة الكاملة على ممتلكات بريطانيا في البحر المتوسط، أما الأسئلة التي تمّت مناقشتها من خلال المعاهدة فهي شؤون بحرية خالصة، وفي نهايتها توقيعات المسؤولين الذين وقّعوها. وقد قمت بقراءتها بسرعة ثم جلست لأبدأ مهمّتي في النسخ.

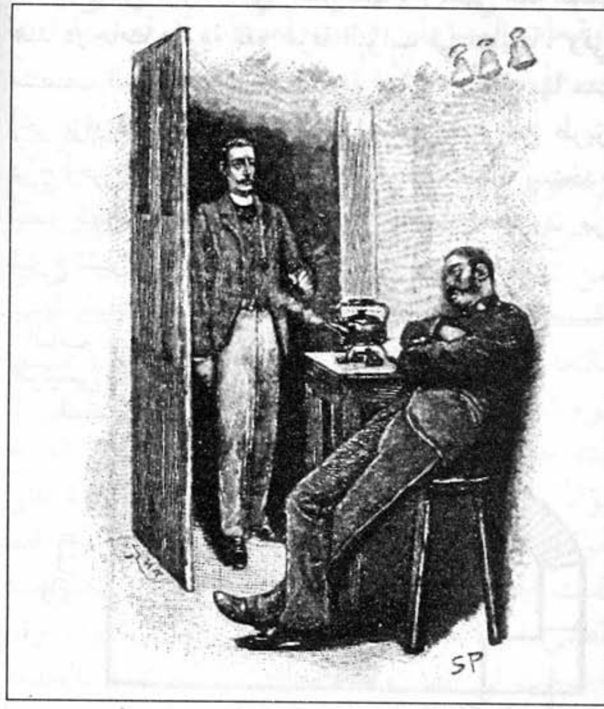
كانت وثيقة طويلة مكتوبة باللغة الفرنسية وتحتوي على ستة وعشرين فصلاً، وقد قمت بالنسخ بأسرع ما أستطيع، ولكنني لم أكن قد انتهيت إلا من تسعة فصول حتى الساعة التاسعة، فبدا أن من المستحيل أن أحاول اللحاق بقطاري. وكنت أشعر بالنعاس والبلادة جزئياً بسبب عشائي وأيضاً بسبب يوم العمل الطويل ورأيت أن كوباً من القهوة يمكن أن ينبّه حواسّي، وبما أن في غرفة صغيرة أسفل الدرَج بوّاباً يبقى طول الليل ومن عادته إعداد القهوة على موقده الصغير لأي موظّف يعمل خارج الدوام فقد قمت بقرع الجرس لاستدعائه. لدهشتي استجابت لطلبي امرأة مسنّة ضخمة الوجه ترتدي مئزراً، وقد وضّحت لي أنها زوجة الحاجب وأنها تقوم بالخدمة النهارية، فطلبت منها القهوة.

كتبت فصلين آخرَين، وبعدئذ شعرت بنعاس لم أشعر بمثله من قبل! فوقفت وتمشّيت في الغرفة جيئة وذهاباً لأحرك ساقَيّ. لم تكن قهوتي قد وصلت بعد، وتساءلت عن سبب هذا التأخير ففتحتُ الباب ثم مشيت إلى آخر الممر لأستكشف الأمر، وقد كان ممراً مستقيماً إضاءته خافتة، وهو الطريق الوحيد للخروج من الغرفة التي أعمل فيها، وينتهي هذا الممر عند درجات دائرية تقع غرفة البوّاب في نهايتها، وفي منتصف الدرجات توجَد فسحة صغيرة يتصل بها ممر آخر بزاوية قائمة، وهذا الممرّ الثاني يقود عن طريق درَج آخر صغير إلى باب جانبيّ للخدم، كما أنه يُستخدم أيضاً كطريق مختصر للموظفين عندما يحضرون من شارع تشارلز. ها هو رسم توضيحي للمكان.



قال شيرلوك هولمز: شكراً لك، أعتقد أنني قد تتبّعت وصفك تماماً.

فاستطرد الشابّ قائلاً: من المهمّ جداً أن تلاحظ هذه النقطة، فقد نزلت الدرجات ودخلت إلى الصالة حيث وجدت البوّاب غارقاً في النوم في غرفته والإبريق يغلي بشدّة على الموقد، فأنزلت الإبريق



Sydney Paget 1893 — رسم سدني باجيت ١٨٩٣

وأطفأت الموقد لأن الماء كان يتدفق على الأرض، وقبل أن أمدّ يدي لأهزّ الرجل الذي كان ما يزال نائماً بعمق أيقظه رنينُ الجرس الذي رنّ فوق رأسه بصوت عالٍ، فاستيقظ فَزِعاً وقال وهو ينظر إليّ بدهشة: سيد فيلبس، سيدي!

- لقد جئت لأرى إن كانت قهوتي جاهزة.

- لقد كنت أغلي الماء عندما غرقت في النوم يا سيدي.

كان ينظر إليّ ثم إلى أعلى حيث يوجَد الجرس والدهشة المتزايدة مرتسمة على وجهه، ثم سألني: إذا كنت هنا يا سيدي فمن يدقّ الجرس إذن؟

صحت قائلاً: الجرس؟ ما هذا الجرس؟!

- جرس الغرفة التي كنتَ تعمل بها.

أحسست بيد باردة تقبض على قلبي، ففي تلك الغرفة شخص ما حيث توجَد المعاهدة الثمينة على الطاولة، فجريت بجنون صاعداً الدرجات ثم مشيت عبر الممرّ حيث لم يكن أحد يا سيد هولمز، لا على الدرج ولا في الغرفة أيضاً... كان كل شيء كما تركته ما عدا تلك الأوراق التي عُهد إليّ بها؛ لقد اختفت من فوق مكتبي حيث كانت. كانت النسخة هناك، أما الأصل فقد اختفى!

جلس هولمز في كرسيه وفرك يديه، واستطعت أن أرى أن المشكلة كانت تستهويه تماماً، قال متمتماً: وماذا فعلت حينذاك؟

- أدركت على الفور أن السارق قد صعد من الدرجات المؤدّية إلى الباب الجانبي، فلو أنه جاء من الطريق الآخر لكنت قابلته بالتأكيد.

- هل كنت متأكداً من عدم اختبائه في الغرفة طوال ذلك الوقت أو في الممرّ الذي وصفتَه لتوّك بأنه خافت الإضاءة؟

- هذا غير ممكن إطلاقاً، فحتى الفأر الصغير لا يستطيع الاختفاء في هذه الغرفة أو في الممرّ، فلا يوجَد هناك أي مكان للاختباء.

- شكراً لك، أكمل أرجوك.

- أدرك البوّاب من شحوب وجهي أن أمراً خطيراً قد وقع، فتبعني إلى الدور العلوي، وأسرعنا عبر الممرّ ثم نزلنا الدرجات المنحدرة المؤدّية إلى شارع تشارلز، وكان الباب في نهاية الدرَج مغلَقاً ولكنه غير مقفل بالمفتاح، ففتحناه واندفعنا إلى الخارج، وأستطيع أن أتذكر بوضوح أننا حين فعلنا ذلك سمعنا ثلاث دقّات من ساعة مجاورة، فقد كانت الساعة العاشرة إلا الربع.

قال هولمز وهو يكتب ملحوظة مقتضبة: إن لذلك أهمية كبيرة.

أكمل الشاب: كانت الليلة حالكة الظلام وكان المطر يتساقط خفيفاً دافئاً ولم يكن في شارع تشارلز أحد، ولكن المرور كان كثيفاً كعادته في وايت هول في وقت الذروة، وقد أسرعنا نمشي على رصيف الشارع دون مظلّات واقية من المطر فوجدنا شرطياً واقفاً في الزاوية البعيدة من الشارع فقلت لاهثاً: لقد حدثت سرقة، لقد سُرقت وثيقة عالية القيمة من وزارة الخارجية، هل مرّ أحد من هذا الطريق؟

قال: أنا أقف هنا منذ ربع ساعة يا سيدي، ولم يمرّ بي سوى شخص واحد خلال هذا الوقت، امرأة طويلة كبيرة في السنّ ترتدي وشاحاً من الكشمير.

صاح البوّاب: آه، إنها زوجتي. ألم يمرّ أحد آخر؟

- لا أحد.

صاح الرجل وهو يشدّ كمّي: لا بد أن السارق قد ذهب من الناحية الأخرى إذن.

ولكنني لم أقتنع، وزادت محاولاته لإبعاديّ من شكوكي فصحت: من أي طريق ذهبت المرأة؟

- لا أعرف يا سيدي، لقد لاحظت مرورها

ولكن لم يكن عندي سبب مهم لأراقبها، وكان يبدو أنها على عجلة.

- كم مضى من الوقت على ذلك؟

- دقائق قليلة.

- أكان ذلك خلال الدقائق الخمس الماضية؟

- حسناً، لا يمكن أن تكون أكثر من خمس دقائق.

صاح البوّاب: أنت تضيّع وقتك يا سيدي، فكل دقيقة الآن لها أهميتها. ثق بكلامي، فالمرأة لا علاقة لها بالأمر، وتعالَ إلى الناحية الأخرى من الشارع. حسناً، إذا لم تأتِ فسأذهب أنا.

وبعد هذا الكلام انطلق إلى الناحية الأخرى من الشارع، ولكنني لحقت به بعدها بلحظة وأمسكت بكمّه ثم قلت: أين تعيش؟

أجابني قائلاً: ١٦ شارع آيْفي، بريكستون، ولكن لا تتبع الأثر الخاطئ يا سيد فيلبس. تعالَ إلى نهاية الشارع لنرى ما إذا كان بإمكاننا سماع أي شيء.

لم أكن لأخسر شيئاً إذا تبعت نصيحته، ولذلك أسرعت مع الشرطي إلى هناك لنجد الشارع مزدحماً

بالمرور وكثيراً من الناس غادين رائحين وكلهم متلهف للوصول إلى مكان آمن في هذه الليلة الممطرة، ولم نجد أي متسكع ليخبرنا عمّن مرّ من هناك. وعندئذ عدنا إلى المكتب وفتّشنا الدرجات والممر دون أية نتيجة، أما الممر المؤدّي إلى الغرفة فقد كان مغطى بمشمّع أرضيات أبيض اللون وهو يُظهِر الأثر بمنتهى السهولة، وقد فحصناه بدقّة شديدة ولم نجد أية آثار لأقدام.

سأل هولمز: هل كانت تمطر طوال المساء؟

- منذ الساعة السابعة.

- كيف لم تترك المرأة التي دخلت الغرفة أية آثار لحذائها المتسخ بالطين إذن؟

- يسعدني أنك أثرت هذه النقطة؛ فقد خطرت على بالي في ذلك الوقت، ولكن الخادمات يخلعن أحذيتهن في غرفة البوّاب ويرتدين خفاً ملائماً.

- هذا واضح، لم تكن هناك أية آثار إذن بالرغم من أن الليلة كانت ممطرة. سلسلة الأحداث مثيرة للاهتمام بالتأكيد. وماذا فعلت بعد ذلك؟

- فحصنا الغرفة أيضاً. لم يكن فيها أي احتمال لوجود باب سرّي، وفيها نافذتان ترتفعان عن أرض

الشارع عشرة أمتار وكلاهما مغلَقتان من الداخل بإحكام، كما يمنع السجّاد أية احتمالات لوجود فتحة خفية في أرض الغرفة، أما السقف فهو من النوع الأبيض العادي، ولذلك فأنا أراهن بحياتي أن من سرق الأوراق لم يكن ليستطيع الدخول إلا من الباب.

- وماذا عن المدفأة؟

- لا توجد مدفأة في الجدار بل موقد تدفئة عادي. إن حبل الجرس معلَّق إلى يمين مكتبي مباشرة، ومَن قرع الجرس لا بدّ أنه وقف بالقرب من المكتب ليفعل ذلك. ولكن لماذا يقرع أي لصّ الجرس؟ إنه لغز غير قابل للحل.

- هذه حادثة غير عادية بكل تأكيد. ماذا كانت خطوتك التالية؟ تفحصت الغرفة -على ما أعتقد- لترى إن كان الدخيل قد ترك أية آثار فيها مثل أعقاب اللفائف أو قفّاز مرميّ أو ما شابه ذلك؟

- لم يكن هناك شيء من هذا النوع.

- ولا رائحة؟

- حسناً، لم نفكّر في ذلك.

- كانت رائحة التبغ ستمثّل أهمية كبيرة لهذا التحقيق.

- أنا لا أدخّن، ولذلك أعتقد أنني كنت سألاحظ إذا كانت هناك رائحة للتبغ. لم يكن هناك دليل من أي نوع، الحقيقة المادية الوحيدة هي أن زوجة البوّاب، السيدة تانغي، أسرعت لتخرج من المكان، ولم يستطع البوّاب إعطاءنا أي تفسير لذلك سوى أن هذا هو الموعد المعتاد لذهابها إلى المنزل، وقد اتفقنا أنا والشرطي على أن الخطّة المثالية هي محاصرتها في المنزل قبل أن تتخلص من الأوراق... على افتراض أنها قد أخذتها.

كان الإنذار قد وصل إلى سكتلنديارد في ذلك الوقت، وجاء المحقّق السيد فوربس في الحال وشرع في معالجة القضية بهمّة كبيرة، فاستأجرنا عربة بعجلتين، وفي خلال نصف ساعة كنا قد وصلنا إلى العنوان الذي قدمه البواب حيث فتحت لنا البابَ امرأة صغيرة السنّ تبيّن فيما بعد أنها الابنة الكبرى للسيدة تانغي، ولم تكن أمها قد رجعت بعد فأرشدتنا إلى الغرفة الأمامية لننتظرها. بعد مرور نحو عشر دقائق سمعنا دقّات على الباب، وعندها ارتكبنا خطأً فاحشاً ألوم نفسي عليه؛ لقد تركنا الفتاة لتفتح الباب بدلاً من أن نفتحه بأنفسنا، وقد سمعناها تقول: أمي، في المنزل رجلان ينتظرانك.

وبعد ذلك بلحظة سمعنا وقع خطوات مبتعدة في الممرّ، ففتح فوربس الباب بعنف وجرينا إلى

الغرفة الخلفية والمطبخ، ولكن المرأة كانت قد سبقتنا ووقفت تحدّق إلينا بنظرات متحدية، ثم تعرفت عليّ فجأة فعلا وجهَها تعبيرٌ من الدهشة المطلَقة وصاحت: يا للعجب! إنه السيد فيلبس الذي يعمل بالمكتب!

سألها رفيقي قائلاً: هيّا، مَن كنت تحسبيننا حين هربت؟

قالت: ظننتكما من المحصّلين، فنحن نعاني من مشكلة مع أحد التجار.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

أجابها فوربس قائلاً: ليس هذا مقنعاً بما فيه الكفاية، فلدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الشكّ بأنك قد أخذت أوراقاً مهمة من وزارة الخارجية ونظن أنك هربت إلى هنا لتتخلصي منها، ولذلك يجب عليك أن تأتي معنا إلى إدارة الشرطة لنفتّشك.

ضاعت كل اعتراضاتها ومقاومتها هباء، واستأجرنا عربة ذات أربع عجلات فركبناها نحن الثلاثة وعدنا بها، ولكن قبل ذلك قمنا بفحص المطبخ، ولا سيما الموقد، لنتأكد من أنها لم ترمِ الأوراق في اللحظة التي كانت فيها بمفردها، ولكن لَم يكن هناك أي أثر لرماد أو قصاصات على أية حال.

وعندما وصلنا إلى إدارة سكتلنديارد تمّ تسليمها على الفور إلى السيدة المتخصصة في تفتيش النساء، وانتظرت وأنا أتعذب من الترقّب حتى عادت ومعها تقريرها عن التفتيش، ولم يكن للأوراق أي أثر.

عندئذ بدأت أحسّ بالرعب للمرة الأولى، فحتى تلك اللحظة كنت أتحرك وقد خدّرَت الحركة تفكيري، وقد كنت واثقاً جداً من استعادة المعاهدة في الحال لدرجة أنني لم أفكر في العواقب التي ستحدث إذا فشلت في ذلك، أما في تلك اللحظة فلم يَعُد أمامي ما يمكن عمله واتّسع الوقت أمامي لأدرك موقفي الذي كان موقفاً رهيباً! سيؤكد لك واطسون أنني كنت ولداً

حسّاساً وعصبياً في المدرسة... إنها طبيعتي. وحينها فكّرت في خالي وفي زملائه في المجلس وفي العار الذي جلبته عليه وعلى نفسي وعلى كل من له علاقة بي، وبالرغم من أنني كنت ضحية حادثة غير عادية إلا أنه من غير المسموح وقوع مثل هذه الحوادث فيما يتعلق بالمصالح الدبلوماسية.

لا أعرف ماذا فعلت، ولكني أذكر أنني قد انفجرت غاضباً، وأذكر بشكل مبهَم أن مجموعة من الموظفين قد تجمعوا حولي لتهدئتي، وأذكر أن واحداً منهم رافقني حتى محطة واترلو وأوصلني إلى القطار المتجه إلى ووكنغ، وأظن أنه كان سيأتي معي لولا أن الدكتور فيرير الذي يعيش بالقرب مني كان مسافراً بالقطار ذاته وتولى هو مسؤولية توصيلي، وكان ذلك أمراً جيداً إذ انتابتني نوبة في المحطة، وقبل أن نصل إلى المنزل كنت أهذي كالمجنون!

يمكنك أن تتخيل كيف كانت الأمور هنا حين أيقَظَتهم دقّات الطبيب على الباب ليجدوني في تلك الحالة. لقد تحطّم قلب المسكينة آني وأمي معاً، وكان الدكتور فيرير قد سمع ما يكفي من المحقّق في المحطة ليكوّن فكرة عما حدث، ولم يكن ما قاله مُطَمْئِناً فقد كان من الواضح أنني على أبواب مرض طويل، ولذلك أخرجوا جوزيف من غرفته المبهجة

بسرعة وحوّلوها إلى غرفة تمريض لي. وهكذا رقدتُ -يا سيد هولمز- لِما يزيد على تسعة أسابيع فاقداً الوعي وأهذي بسبب حُمّى في الدماغ، ولولا الآنسة هاريسون التي لم تفارقني وعناية الطبيب لما كنت أتكلم معك الآن، فقد مرّضتني نهاراً واعتنت بي ممرّضة مستأجَرة في أثناء الليل، إذ كان من الممكن أن أفعل أي شيء خلال نوبات هياجي!

استعدت رشدي ببطء، ولكن لم ترجع لي الذاكرة إلا في الأيام الثلاثة الماضية، وإن كنت أتمنّى أحياناً لو لم ترجع مطلقاً. كان أول ما فعلته هو أن بعثت برقية إلى السيد فوربس الذي كان يتولى القضية، وقد حضر وأكّد لي أنه بالرغم من القيام بجميع الإجراءات إلا أنهم لم يعثروا على أثر لأي دليل، وقد تحققوا من البوّاب وزوجته بكل طريقة ممكنة إلا أنهم لم يتوصلوا إلى أي شيء يفيدهم في هذا الموضوع. وقد تركزت شكوك الشرطة على الشابّ غورو الذي كان قد مكث وقتاً إضافياً في المكتب تلك الليلة كما تذكر، وإن كان أساس شكهم يرتكز على نقطتين فقط: بقائه بعد الآخرين، واسمه الفرنسي. ولكن أنا لم أبدأ العمل إلا بعد ذهابه في حقيقة الأمر، وبالرغم من أن أهله من أصل فرنسي إلا أنه لا يقلّ في عاداته وولائه لإنكلترا عني وعنك. وبما أنهم لم يجدوا ما يدل على تورّطه بأي شكل فقد تركوا الأمر، ولهذا فقد توجهت إليك

كأمل أخير يا سيد هولمز، ولو أنك خذلتني فسوف أخسر شرفي وعملي إلى الأبد.

استلقى المريض على وساداته متعَباً بعد سرد حكايته الطويلة، في حين قامت ممرّضته بإعطائه بعض الدواء المنشّط، أما هولمز فقد جلس صامتاً ورأسه مائل إلى الخلف وعيناه مغلَقتان، وهو سلوك قد يعتبره الغريب كسلاً، ولكنني أعرف أنه رمز لمدى استغراقه الشديد في التفكير.

قال هولمز أخيراً: روايتك واضحة جداً لدرجة أنك لم تترك لي إلا أسئلة قليلة لأسألها، ولكني بحاجة فورية إلى جواب على سؤال واحد: هل أخبرت في تلك الليلة أيّاً كان بأنك قد كُلِّفت بهذه المهمّة الخاصة؟

- لا أحد.

- ولا حتى الآنسة هاريسون الموجودة هنا على سبيل المثال؟

- نعم، فأنا لم أرجع إلى منزلي في ووكنغ في الفترة التي فصلت بين تلقي الأمر والبدء بتنفيذ تلك المهمّة.

- ألم يأتِ أحد من أهلك مصادفة لرؤيتك؟

- لا أحد.

- وهل يعرف أيّ منهم طريقه داخل المكتب؟

- نعم، فجميعهم حضر إلى المكتب من قبل.

- وبالرغم من ذلك فكل هذه التساؤلات ليس لها أهمية بالطبع إذا لم تكن قد أخبرت أحداً عن المعاهدة.

- لم أقُل شيئاً لأحد.

- هل تعرف شيئاً عن البوّاب؟

- لا شيء عدا أنه جندي قديم.

- في أي سلاح؟

- لقد سمعت أنه كان في الحرس الملكي.

- شكراً لك. لست أشك أدنى شك في أنني أستطيع الحصول على هذه التفصيلات من فوربس، فالسلطات ممتازة في تكديس الحقائق بالرغم من عدم استفادتهم منها.

سألته السيدة الصغيرة: هل لديك أي أمل بحلّ هذا اللغز يا سيد هولمز؟

- حسناً، سيكون من غير المعقول أن أنكر أن هذه قضية غامضة ومعقّدة جداً، ولكنني أؤكّد لكم

بأني سأدرس الأمر وأبلغكم بأية نقاط قد تخطر على بالي.

- هل ترى أي دليل؟

- لقد زوّدتموني بسبعة أدلّة، ولكن يجب عليّ أن أدرسها بالطبع قبل أن أقدّر مدى فائدتها.

- هل تشكّ بأحد؟

- أنا أشكّ بنفسي.

- ماذا؟!

- لأنني توصّلت إلى الحل بهذه السرعة.

- فلتذهب إلى لندن وتدرس استنتاجاتك إذن.

نهض هولمز قائلاً: نصيحتك ممتازة جداً يا آنسة هاريسون، وأعتقد أن هذا هو خير ما نفعله يا واطسون. لا تغرق نفسك في الآمال الكاذبة يا سيد فيلبس، فالأمر متشابك جداً.

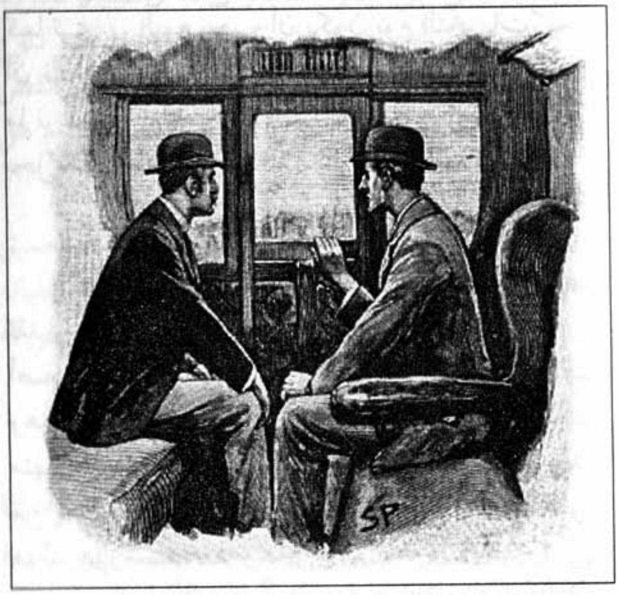
صاح الدبلوماسي: سأنتظر رؤيتك على أحرّ من الجمر.

- حسناً، سآتي إلى هنا غداً بنفس القطار، بالرغم من أنه من المرجَّح أن يكون تقريري سلبياً.

صاح عميلنا: شكراً لوعدك بالمجيء، فمجرّد معرفة أن شيئاً ما يتمّ عمله يعطيني أملاً جديداً.

* * *

أوصلَنا السيد جوزيف هاريسون إلى المحطة، وسرعان ما كنا ننطلق بسرعة في قطار بورتسماوث فيما غرق هولمز في تفكير عميق لدرجة أنه لم يفتح فمه حتى تخطّينا تقاطع كلافام، وحينها قال: ما رأيك بالآنسة هاريسون؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- إنها فتاة ذات شخصية قوية.

- أجل، ولكنها طيبة إذا لم أكن على خطأ، وهما (هي وأخوها) الابنان الوحيدان لأحد كبار رجال صناعة الحديد في مكان ما في الشمال ناحية نورثمبرْلاند. كان فيلبس قد خطبها حين سافر في الشتاء الماضي، ثم ذهبت لزيارته في ووكنغ لتتعرف بأهله ومعها أخوها مرافقاً لها، ثم وقعت الواقعة فبقيَت لتمرّض خطيبها، أما أخوها فقد بقي حين وجد نفسه في وضع مريح. لقد كنت أقوم ببعض التحريات كما ترى... اليوم يجب أن يكون يوم التحريات. يجب أن نبدأ بزيارة فوربس، فمن المحتمَل أن يبلّغنا بكل ما نريد من التفصيلات حتى نعرف من أي جانب نبدأ بحلّ هذه القضية.

- لقد قلتَ إن عندك دليلاً.

- حسناً، عندنا عدّة أدلّة، ولكننا لا نستطيع تقدير مدى قيمتها إلا عن طريق المزيد من الأسئلة. إن أصعب الجرائم هي تلك الجريمة التي تبدو بلا هدف، وهذه الجريمة ليست بلا هدف، فمَن ذا الذي سيستفيد منها؟ لدينا السفير الفرنسي والسفير الروسي، ولدينا من يمكنه أن يبيع المعاهدة لأحدهما، ولدينا اللورد هولد هورست.

- اللورد هولد هورست!

- حسناً، من الممكن أن يجد رجلُ دولة نفسَه في موقف حيث لا يكون آسفاً على دمار مثل هذه الوثيقة عن طريق الخطأ.

- ولكن ليس كل رجل دولة له مثل هذا السجلّ المشرّف للورد هولد هورست.

- إنه مجرّد احتمال ولكن لا يمكننا أن نتغاضى عنه، لذلك سوف نقابل اللورد النبيل اليوم لنكتشف ما إذا كان سيخبرنا بأي شيء. بعد ذلك هناك الجرس بالطبع، وهو من أكثر عناصر هذه القضية تميّزاً، فلماذا تم رنّ الجرس؟ هل قام السارق بذلك كنوع من التبجّح، أم كان مَن فعل ذلك شخصاً رافق اللص وأراد منع الجريمة، أم كان الأمر غيرَ مقصود، أم هل كان...؟

غرق ثانية في حالة من التفكير الصامت العميق الذي كان قد خرج منه، ولأنني معتاد على كل تقلباته المزاجية فقد بدا لي أن احتمالاً جديداً قد خطر له فجأة.

* * *

كانت الساعة الثالثة والثلث حين وصلنا إلى وجهتنا، وبعد وجبة سريعة اتجهنا إلى إدارة سكتلنديارد. وكان هولمز قد أبرق بالفعل إلى فوربس

فوجدناه في انتظارنا، وهو رجل ضئيل ماكر ذو ملامح حادّة ولكنها وَدودة على أية حال، وقد خاطب هولمز قائلاً: يسعدني أن تعطيني تلميحاً أو اثنين، فأنا لم أحصل على شيء من هذه القضية حتى الآن.

- ما الخطوات التي اتخذتَها؟

- قمنا بتعقب البوّاب، وقد علمنا أنه ترك الحرس الملكي وهو مشهود له بالسمعة الحسنة، ولم نستطع اكتشاف أي شيء ضدّه. أما زوجته فهي امرأة سيّئة، وأظن أنها تعرف عن هذا الأمر أكثر مما تظهر.

- هل تتبّعتموها؟

- لقد كلّفنا امرأة من جماعتنا بذلك، ولكنها لم تستطع استخلاص أي شيء منها.

- فهمت أن بعض التجار كانوا في منزل البواب؟

- أجل، ولكن ديونهم دُفعت كلها.

- ومن أين أتوا بالمال؟

- كان هذا الأمر شرعياً، فقد قبض تانغي البوّاب راتبه التقاعدي، ولم يظهر عليهم أي أثر لمبالغ مالية غير شرعية.

- وماذا كان تفسير المرأة لردّها على الجرس

الذي قرعه السيد فيلبس عندما أراد القهوة؟

- قالت إن زوجها كان متعَباً وأرادت مساعدته.

- حسناً، هذا يتفق مع العثور عليه نائماً في مقعده بعد ذلك بقليل. لا شيء ضدّهما إذن إلا سلوك



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

المرأة. هل سألتها لماذا أسرعت راحلة تلك الليلة؟ فقد جذبت سرعتها انتباه الشرطي.

- قالت إنها كانت قد تأخرت عن ميعادها المعتاد وأرادت الوصول إلى المنزل.

- وهل أوضحتَ لها أنك ومعك السيد فيلبس قد وصلتما قبلها بالرغم من كونكما انطلقتما بعدها بعشرين دقيقة على الأقل؟

- لقد قالت إن ذلك هو الفارق بين الحافلة الكبيرة والعربة الخاصة.

- وهل أوضحَت سبب جريها إلى المطبخ حينما وصلت إلى المنزل؟

- لأنها وضعت المال الذي ستدفعه إلى السماسرة هناك.

- يبدو أنها تملك جواباً لكل سؤال. هل سألتها عما إذا كانت قد قابلت أو رأت أحداً يتسكع بالقرب من شارع تشارلز؟

- لم ترَ أحداً إلا الشرطي.

- حسناً، يبدو أنك استجوبتها بدقّة. ماذا فعلتَ أيضاً؟

- تعقّبنا الموظّف غورو طوال الأسابيع التسعة الماضية، ولكن بلا نتيجة، فلم نعثر على أي دليل ضدّه.

- أهناك شيء آخر؟

- حسناً، ليس لدينا شيء لنعمل عليه، فلا يوجَد دليل من أي نوع.

- هل كوّنت نظرية عن الكيفية التي تم بها رنّ ذلك الجرس؟

- حسناً، يجب أن أعترف بأنني احترت في هذا الأمر، ولكن أياً كان من فعل ذلك فهو جريء جداً.

- أجل، لقد كان من الغريب فعل ذلك. شكراً جزيلاً على كل ما قلته لي، وسأخبرك إذا كنت أستطيع مساعدتك في القبض على الفاعل. هيّا بنا يا واطسون.

* * *

سألته حين انصرفنا: إلى أين سنذهب الآن؟

- سنذهب الآن لمقابلة اللورد هولد هورست الوزير بمجلس الوزراء ورئيس وزراء إنكلترا المقبل.

حالفَنا الحظّ فوجدنا اللورد هولد هورست

ما يزال في مقر الحكومة في شارع داوننغ، وعندما أرسل هولمز بطاقته الشخصية إليه سمحوا لنا بالصعود على الفور. وقد استقبلَنا رجل الدولة بلباقته التقليدية المعروفة ودعانا إلى الجلوس على الأريكتين الفاخرتين على جانبَي المدفأة، وظهر من وقفته بيننا في الممرّ بجسمه الطويل النحيل وملامحه الحادّة ووجهه المفكر وشعره المجعَّد الذي يتخلله شيب مبكّر أنه نبيل من أصل عريق وليس من عامة الناس.

ابتسم قائلاً: اسمك مألوف يا سيد هولمز، وبالطبع لا أستطيع التظاهر بأنني أجهل سبب زيارتك، فلا شيء يجذب انتباهك في هذه المكاتب إلا أمر واحد فقط. فهل لي أن أسألك: لمصلحة مَن تعمل يا سيد هولمز؟

أجاب هولمز: لمصلحة السيد بيرسي فيلبس.

- آه، ابن أختي السيّئ الحظ! أنت تفهم أن قرابتنا تزيد من استحالة تدخّلي لحمايته بأية طريقة، وأخشى أن لهذه الحادثة أثراً ضارّاً جداً بمستقبله الوظيفي.

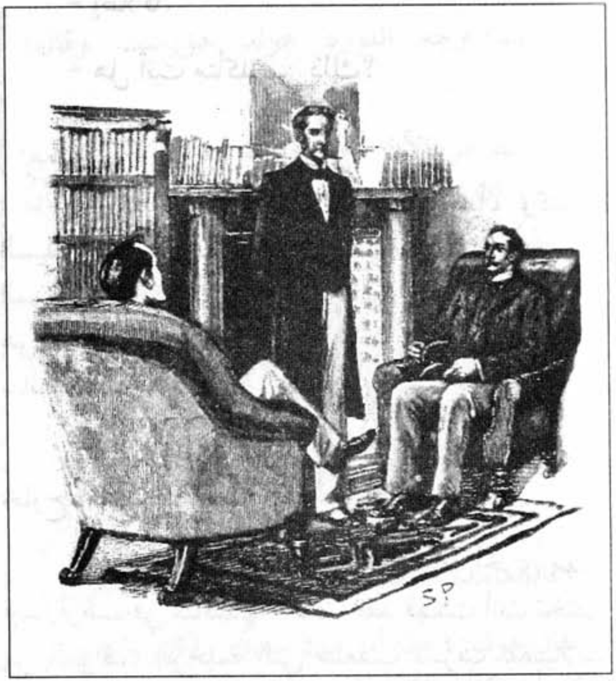
- ولكن ماذا لو عُثر على الوثيقة؟

- آه، في هذه الحالة سيكون الأمر مختلفاً بالطبع.

- أحب أن أسألك سؤالاً أو اثنين يا لورد هولد هورست.

- سأكون سعيداً إذا استطعتُ تزويدك بأية معلومات مفيدة.

- هل أعطيت تعليماتك بنسخ الوثيقة في هذه الغرفة؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- نعم.

- ألا يمكن إذن أن يكون أحدٌ قد سمعكما؟

- هذا أمر غير ممكن.

- هل حدّثْتَ أيّاً كان بنيّتك إعطاء المعاهدة لشخص ما لنسخها؟

- إطلاقاً.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- تماماً.

- حسناً، حيث إنك لم تخبر أحداً، وكذلك السيد فيلبس، ولم يعلم أي شخص شيئاً عن هذا الموضوع، فلا بدّ أن وجود السارق إذن في الغرفة هو من باب المصادفة البحتة، ولا بد أنه رأى الفرصة سانحة فانتهزها.

ابتسم رجل الدولة وقال: أنت تأخذني إلى خارج اختصاصي بهذا الكلام.

فكّر هولمز للحظة وقال: لديّ نقط أخرى مهمّة جداً أرغب في مناقشتها معك، فقد فهمت أنك تخشى من العواقب الوخيمة التي ستعقب تسرُّب تفصيلات هذه المعاهدة وانتشارها.

اكفهرّ وجه رجل الدولة المعبّر وقال: نتائج وخيمة جداً بالفعل.

- وهل حدث شيء منها؟

- ليس بعد.

- وهل تتوقع أن تعرف إذا وصلت المعاهدة، فرضاً، إلى السفارة الفرنسية أو الروسية؟

تجهّم وجه اللورد هولد هورست وقال: بالتأكيد.

- لقد مرّ الآن نحو عشرة أسابيع ولم نسمع أي شيء، إذن فليس من غير المنطقي أن نفترض أن المعاهدة لم تصل إليهم لسبب ما.

هزّ اللورد هولد هورست كتفيه وقال: من المستبعَد أيضاً أن نعتقد أن اللصّ قد أخذ المعاهدة ليضعها في إطار ويعلّقها على الجدار.

- لعله ينتظر سعراً أعلى.

- إذا انتظر وقتاً أطول قليلاً فلن يحصل على أي سعر، فالمعاهدة ستصبح علنية خلال بضعة شهور.

قال هولمز: هذا أمر مهمّ جداً، ولكن بالطبع من الممكن أن يكون اللص قد مرض مرضاً مفاجئاً...

سأله رجل الدولة وهو يلقي عليه بنظرة سريعة: نوبة من حمّى الدماغ مثلاً؟

قال هولمز برباطة جأش: لم أقُل ذلك. حسناً، لقد أخذنا الكثير من وقتك الثمين يا لورد هولد هورست، وسوف نتركك الآن متمنّيين لك يوماً سعيداً.

أجابه النبيل وهو يرافقنا حتى الباب: أتمنّى لك النجاح في تحقيقاتك، وليكن اللصّ مَن يكون.

قال هولمز عندما خرجنا إلى الشارع: إنه رجل نزيه ولكنه يناضل من أجل الاحتفاظ بمكانته، فهو ليس غنيّاً وعليه أعباء كثيرة. لقد لاحظتَ بالطبع أنه قد أعاد تركيب نعل جديد لحذائه. والآن يا واطسون لن أؤخّرك عن عملك الطبي أكثر من ذلك، فلن أفعل شيئاً اليوم إلا إذا جاءني ردّ على إعلان عربة الأجرة، ولكنني سأكون ممتنّاً جداً لك إذا ذهبت معي إلى ووكنغ غداً في نفس القطار الذي ركبناه بالأمس.

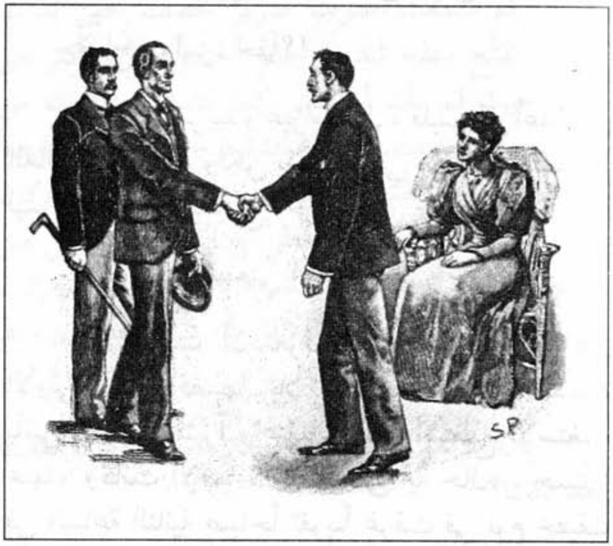
* * *

قابلته في صباح اليوم التالي وفقاً للموعد وسافرنا معاً إلى ووكنغ، وقد علمت أنه لم يجد أية أدلّة جديدة تحل غموض القضية. وقد كسا وجهَ هولمز جمودُ الهنود الحمر (وهو معتاد على فعل ذلك

كلّما شاء) فلم أستطع أن أستنتج أهو راض عن سير القضية أم غير راض.

وجدنا عميلنا ما يزال تحت رعاية ممرّضته المخلصة، ولكنه بدا أحسن حالاً بشكل واضح حيث قام لتحيّتنا دون صعوبة عندما دخلنا ثم سألنا بلهفة: هل لديكما أخبار جديدة؟

قال هولمز: تقريري سلبيّ كما توقعت، فقد قابلت فوربس ثم قابلت خالك، وبعد ذلك بدأت سلسلة من التحقيقات قد تؤدّي إلى شيء.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- لم تفقد الحماسة إذن؟

- إطلاقاً.

قال فيلبس وهو يعود إلى الجلوس على الأريكة: إذن فإن ما عندنا من الأخبار أكثر مما عندك. لقد حظينا بمغامرة في أثناء الليل ربما تثبت خطورتها.

ارتسمت ملامح الجِدّ على وجهه وهو يتكلم، ومعها ظهر شيء يشبه الخوف في عينيه وقال: أتعلم؟ لقد بدأت أظن بأنني محور لمؤامرة وحشية وأن المستهدَف هو حياتي بالإضافة إلى شرفي.

صاح هولمز: حقاً؟!

- هذا الأمر يبدو غيرَ معقول، فليس لي أعداء في العالم كما أظن! ولكن بعد تجربتي في الليلة الماضية ليس أمامي أي استنتاج آخر.

- أرجوك أسمعني القصة.

قال: يجب أن تعرف أن الليلة الماضية هي الأولى التي أقضيها بلا ممرّضة؛ فقد أحسست بأنني تحسنت كثيراً واعتقدت أنني أستطيع الاستغناء عنها، وكانت الإضاءة خافتة على أية حال... حسناً، في الساعة الثانية صباحاً تقريباً غرقت في نوم خفيف حتى أيقظتني ضوضاء طفيفة، وقد بدا ذلك الصوت

كصوت فأر يقرض لوحاً خشبياً، فرقدت أستمع إليه وكلي اعتقاد أن ذلك هو مصدر الصوت بالفعل. ثم علا الصوت وتلاه صوت آخر لقرقعة معدنية حادّة من النافذة، فاستقمت جالساً في دهشة إذ لم يعد لديّ عندئذ مجال للشكّ في حقيقة هذه الأصوات؛ فالصوت الأول كان لأن شخصاً ما أخذ يحاول إدخال آلة من الشقّ الموجود بين إطارَي النافذة، والثاني كان صوت القفل وهو يُدفَع إلى الخلف! سادت فترة من الصمت امتدّت لعشر دقائق، كما لو كان ذلك الشخص ينتظر ليرى ما إذا كان الصوت قد أيقظني أم لا. ثم سمعت صوت صرير خفيف حين بدأت النافذة تُفتَح ببطء شديد، فلم أحتمل الأمر أكثر من ذلك حيث لم تعُد أعصابي كما كانت، فقفزت من السرير وفتحت مصراعَي النافذة فوجدت رجلاً رابضاً خلفها! لم أرَه بوضوح لأنه اختفى كلمح البصر، وكان مُلتَفّاً بشيء يشبه العباءة يغطّي به النصف الأسفل من وجهه، ولكنني متأكد من شيء واحد، وهو أنه كان يحمل في يده سلاحاً ما بدا لي أنه شيء طويل، وقد ميّزت لمعته عندما استدار ليجري.

قال هولمز: هذا أمر مثير للاهتمام! وماذا فعلت بعد ذلك؟

- كان يجب أن أتبعه من النافذة المفتوحة لو

كنت أكثر قوّة، ولكنني لم أفعل؛ بل قمت بدقّ الجرس وأيقظت كل من في المنزل الأمر، الأمر الذي استغرق بعض الوقت لأن الجرس في المطبخ والخدم كلهم ينامون في الدور العلوي. وقد صرخت بقوة أيضاً، وعلى إثر ذلك حضر جوزيف ثم أيقظ الباقين، وقد وجد جوزيف ومعه السائس آثاراً في حوض الزهور خارج النافذة، ولكن لأن الجوّ كان جافاً جداً في الأيام الأخيرة فقد كان تعقّب الآثار على العشب بلا جدوى، وإن كان هناك -على أية حال- مكان في السور الخشبي الذي يطوّق الطريق ظهرت فيه علامات كما أخبروني، كما لو كان أحدهم قد قفز فوقه فخلع الحاجز العلوي منه. على أية حال فأنا لم أبلّغ الشرطة بعد إذ ظننت أن من الأفضل أن أعرف رأيك أولاً.

بدا لي أن قصة عميلنا قد أثّرت في شيرلوك هولمز تأثيراً استثنائياً، حيث قام عن مقعده وأخذ يمشي في الغرفة بانفعال شديد، وكان من الواضح أن المغامرة قد هزّت فيلبس إلى حدّ ما بالرغم من أنه ابتسم قائلاً: المصائب لا تأتي فُرادى!

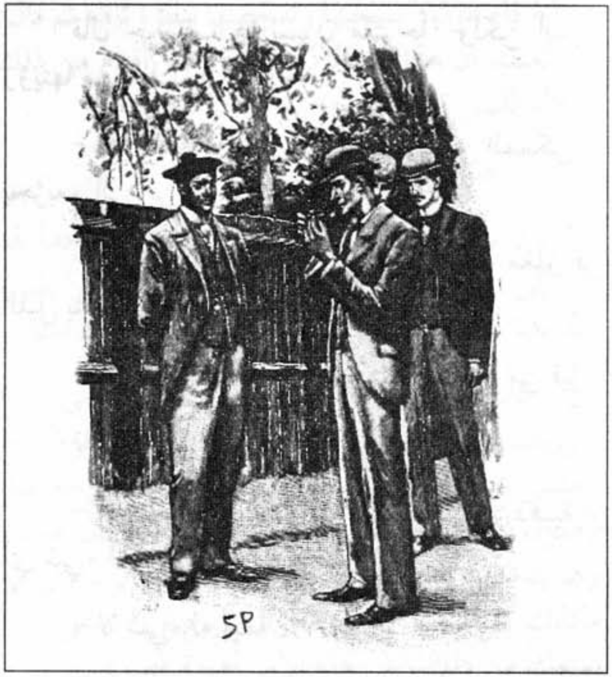
قال هولمز: لقد نلتَ كفايتك منها حقاً. هل تظن أنك قادر على المشي معي حول المنزل؟

- نعم، أحب أن أتمتع بضوء الشمس، وسوف يأتي جوزيف أيضاً.

قالت الآنسة هاريسون: وأنا أيضاً.

قال هولمز وهو يهزّ رأسه: أخشى أن هذا غير ممكن؛ سوف أطلب منك البقاء جالسة حيث أنت.

عادت الشابة إلى كرسيها بامتعاض، أما أخوها فقد لحق بنا. وانطلقنا معاً نحن الأربعة فعبرنا العشب حتى وصلنا إلى خارج نافذة الدبلوماسي الشاب،



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

وهناك وجدنا -كما قال- علامات على حوض الزرع، ولكنها كانت علامات مموَّهة ومبهَمة بشكل محبط. وقد وقف هولمز ليدرسها للحظة ثم اعتدل وهو يهزّ كتفيه وقال: لا أعتقد أن هذه العلامات ذات فائدة. فلنَدُرْ حول المنزل لنرى لماذا اختار اللصّ هذه الغرفة بالذات، فأنا أظن أن النوافذ الأكبر حجماً لغرفة المكتب تمثل فرصة أفضل بالنسبة له.

قال جوزيف هاريسون مقترحاً: ولكن أيمكن رؤيتها من الطريق؟

- آه، نعم، بالطبع. هنا باب كان من الممكن أن يجرّبه، إلى أين يقود هذا الباب؟

- إنه المدخل الجانبي للبائعين، وهو مغلَق في الليل بالطبع.

- هل سبق أن حدث مثل هذا الهجوم من قبل؟

قال عميلنا: إطلاقاً.

- هل تحتفظون بأدوات مائدة فضّية أو ذهبية أو أي شيء آخر يجذب اللصوص؟

- لا شيء له قيمة.

تجول هولمز حول المنزل ويداه في جيبيه

ومظهره يدلّ على تهاون غير معتاد، ثم قال لجوزيف هاريسون: بالمناسبة، فهمت أنكم قد عثرتم على المكان الذي تسلّق منه ذلك الشخص السور. فلنلقِ نظرة عليه.

قادنا الشاب الممتلئ إلى البقعة حيث انكسر الجزء العلوي من السور، وكانت هناك قطعة خشبية متدلية قام هولمز بسحبها وتفحّصها بنظرة ثاقبة ثم قال: هل تعتقد أن هذا تمّ بالأمس؟ إنه يبدو أقدم من ذلك قليلاً، أليس كذلك؟

- حسناً، هذا ممكن.

- لا توجَد أية علامات تدلّ على أن أحداً قد قفز إلى الناحية الأخرى. أعتقد أننا لن نحظى بشيء هنا. هيّا بنا، لنَعُد إلى غرفة النوم لنناقش الأمر ملياً.

كان بيرسي فيلبس يمشي ببطء متكئاً على ذراع جوزيف هاريسون فيما مشى هولمز مسرعاً عبر المرج العشبي، فوصلنا أنا وهو إلى النافذة المفتوحة قبل وصول الرجلين الآخرَين بوقت طويل، وقال هولمز وهو يتحدث بأسلوب شديد الحدّة: يجب أن تمكثي في مكانك يا آنسة هاريسون طوال اليوم ولا تدعي شيئاً يمنعك من ذلك، في هذا الأمر أهمية قصوى.

قالت الفتاة بدهشة: بالتأكيد، إذا كان هذا ما

تريده يا سيد هولمز.

- وعندما تذهبين إلى النوم أقفلي الباب من الخارج واحتفظي بالمفتاح. عديني أن تفعلي ذلك.

- وبيرسي؟

- سيذهب معي إلى لندن.

- وأنا سأبقى هنا؟

- هذا من أجله، وأنت بذلك تُسدين إليه خدمة. أسرعي وعِديني.

هزّت رأسها بسرعة دليلاً على الموافقة، فيما حضر الآخران فصاح فيها أخوها قائلاً: لماذا تجلسين باكتئاب هناك يا آني؟ تعالي إلى هنا في الخارج لتتمتعي بأشعّة الشمس.

-لا، شكراً لك يا جوزيف؛ فأنا أشكو من صداع خفيف وهذه الغرفة باردة ومريحة.

سأل عميلنا هولمز قائلاً: ماذا تقترح الآن يا سيد هولمز؟

- حسناً، يجب أن لا نسمح لهذه القضية البسيطة بأن تقلّل من اهتمامنا بالتحقيق الرئيسي، ولذلك سيكون من المفيد جداً قدومك معنا إلى لندن.

- على الفور؟

- حسناً، حالما تستعدّ... فلنقُل خلال ساعة.

- إذا كان ذهابي ذا فائدة فأنا أشعر بأنني أحسن حالاً بكثير.

- سيكون لذهابك أعظم فائدة ممكنة.

- وهل تريدني أن أقضي الليلة هناك؟

- كنت على وشك اقتراح ذلك.

- وهكذا إذا جاء صديق الليل لزيارتي مرة أخرى فسيجد أن العصفور قد طار! نحن جميعاً تحت أمرك يا سيد هولمز، ويجب عليك إخبارنا بالضبط بالذي تريدنا أن نفعله. لعلك تفضّل أن يأتي جوزيف معنا ليعتني بي؟

- لا، صديقي واطسون طبيب وسيعتني بك. سوف نتناول الغداء ثم نتجه نحن الثلاثة معاً إلى المدينة.

تمّ الأمر كما اقترح هولمز، واستأذنت الآنسة هاريسون لتبقى في الغرفة تبعاً لوصيته. ولم أستطع فهم غرض صديقي من هذه المناورات، إلا إذا كان يريد إبعاد الآنسة عن فيلبس. وقد كان لدى هولمز

مفاجأة مذهلة لنا على أية حال؛ فبعدما اصطحبَنا إلى المحطة وأركبَنا في القطار أعلن بهدوء أنه لا نيّة لديه في مغادرة ووكنغ! قال: توجد نقطة أو اثنتان أريد توضيحاً لهما قبل مغادرتي، وغيابك يا سيد فيلبس سوف يساعدني بطريقة ما. أرجو منك يا واطسون أن تتفضل حين تصل إلى لندن بالذهاب إلى منزلنا في شارع بيكر في الحال والبقاء هناك مع صديقنا حتى أراكما ثانية، ومن حسن الحظّ أنكما صديقا مدرسة قديمان وستجدان الكثير لتتحدثا عنه. يستطيع السيد فيلبس النوم في الحجرة الإضافية هذه الليلة، وسوف أكون معكما غداً وقت الإفطار حيث يصل القطار إلى محطة واترلو في الساعة الثامنة.

سأل فيلبس: ولكن ماذا عن تحقيقنا في لندن؟

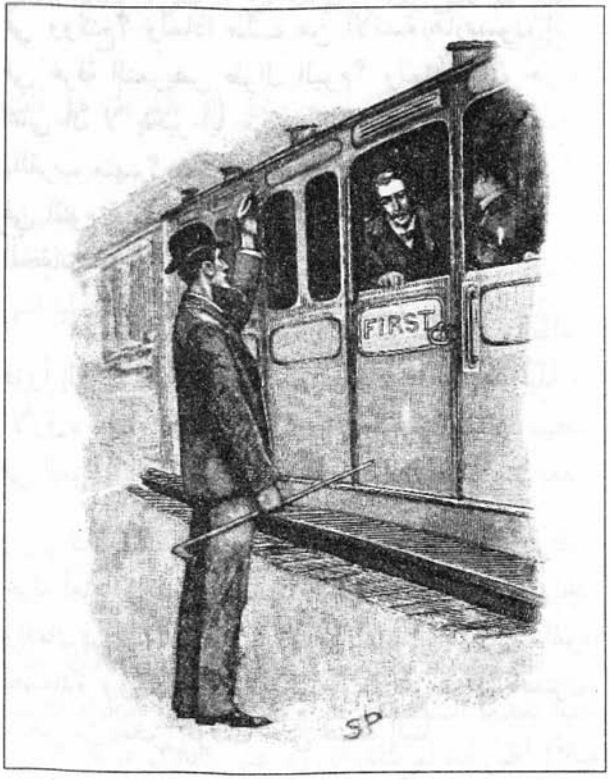
- نستطيع القيام بذلك غداً، أما في الوقت الحاضر فأرى أن وجودي هنا أكثر إلحاحاً.

صاح فيلبس عندما بدأ قطارنا بالتحرّك: أرجو أن تخبرهم في المنزل بأنني سأعود غداً مساء.

أجابه هولمز وهو يلوّح بيده بابتهاج ونحن نغادر المحطّة: لا أظنّ أنني سأعود إلى المنزل.

* * *

ناقشت الأمر مع فيلبس في أثناء الرحلة، ولكن لم يستطع أي منّا تحديد سبب مقنع لهذا التطور الجديد! وحين وصلنا إلى شارع بيكر قلت: والآن هيا إلى النوم لنستيقظ ونحن في كامل النشاط لمواجهة ما ينتظرنا غداً.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

استطعت إقناع رفيقي بالأخذ بنصيحتي رغم معرفتي بأنه لا أمل له في النوم نظراً إلى انفعاله. حتى أنا بقيت أتقلب حتى منتصف الليل وأنا أفكر في هذه المشكلة الغريبة وأصوغ مئات النظريات وكل واحدة منها أكثر استحالة من الأولى، فلماذا بقي هولمز في ووكنغ؟ ولماذا طلب من الآنسة هاريسون البقاء في غرفة التمريض طوال اليوم؟ ولماذا كان حريصاً على أن لا يخبر أياً من سكان المنزل بأنه سيمكث بالقرب منهم؟ مضيت أقدح زناد فكري حتى غرقت في النوم وأنا أسعى إلى العثور على حل يفسر هذه الحقائق كلها.

استيقظت في الساعة السابعة صباحاً وانطلقت فوراً إلى غرفة فيلبس لأجده منهكاً متعَباً بعد ليلة من الأرق، وقد بادرني بالسؤال عن هولمز فقلت: سيصل في الموعد الذي وعدَنا به بالضبط، لا قبله ولا بعده.

كان كلامي صحيحاً، فبعد الثامنة بقليل توقفَت عربة أمام الباب ونزل منها صديقنا، وقد رأيناه ونحن واقفان في النافذة حيث لاحظنا أن يده اليسرى ملفوفة بضمادة ووجهه متهجم شاحب! ثم دخل المنزل، ولكن مرّ بعض الوقت حتى صعد إلينا.

صاح فيلبس: يبدو وكأنه قد ضُرب!

كنت مضطرّاً إلى الاعتراف بأن ما يقوله صحيح فقلت: من المحتمَل أن يكون الحلّ هنا في المدينة.

تأوّه فيلبس وقال: لا أدري ماذا حدث، ولكنني كنت أعلّق الكثير من الآمال على رجوعه، ولكن بالطبع لم تكن يده مربوطة في الأمس، فماذا يمكن أن يكون الأمر؟!

سألت صديقي حين دخل إلى الغرفة: هل أنت مجروح يا هولمز؟

أجاب هولمز وهو يومئ إلينا بتحيّة الصباح وقال: إنه خدش فقط من جرّاء حركاتي الخرقاء. قضيتك -يا سيد فيلبس- واحدة من أكثر القضايا التي عملت فيها غموضاً.

- أخشى أن لا تتمكن من حلّها.

- لقد كانت من أكثر التجارب روعة.

فقلت: الضمادة تدلّ على مغامرات. ألن تخبرنا بما حدث؟

- بعد الإفطار يا عزيزي واطسون؛ فأنا جائع جداً بعدما استنشقت هواء الريف على امتداد ثلاثين ميلاً! أظن أننا لم نتلقَّ أي رد على إعلان عربة الأجرة. حسناً، لا نستطيع أن نتوقع التوفيق في كل مرة.

كانت المائدة جاهزة، وفيما كنت على وشك دقّ الجرس دخلت السيدة هدسون حاملة صينية القهوة والشاي، وبعدها بعدّة دقائق أحضرت ثلاثة أطباق مغطّاة. جلسنا جميعاً حول المائدة، وكان هولمز متحفزاً وكنت أنا فضولياً، أما فيلبس فكان غارقاً في أقسى حالات الاكتئاب.

قال هولمز وهو يكشف طبقاً من الدجاج بالكاري: لقد تفوقَت السيدة هدسون، وبالرغم من أن مطبخها محدود قليلاً إلاّ أنها تعتبر الإفطار وجبة أساسية. ماذا لديك في طبقك يا واطسون؟

أجبته قائلاً: لحم وبيض.

- جيّد، ماذا تفضل يا سيد فيلبس؛ البيض أم الدجاج بالكاري؟

قال فيلبس: شكراً لك، لا أستطيع أكل شيء.

- ماذا؟! هيّا، جرّب هذا الطبق أمامك.

- شكراً لك، ولكني أفضّل أن لا آكل.

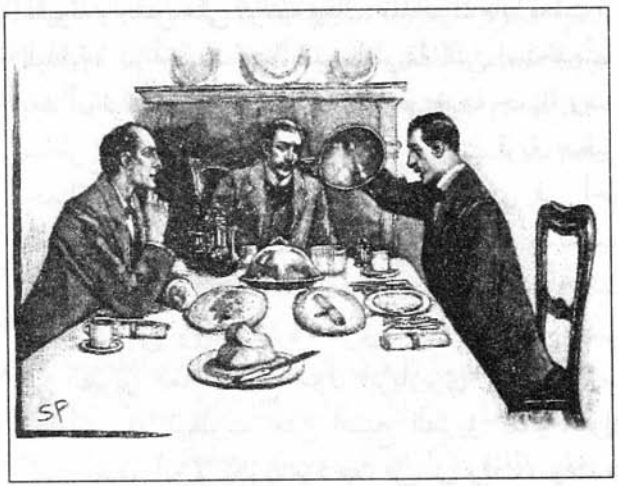
قال هولمز بغمزة عابثة: حسناً، إذن أظن أنك لا تمانع في أن أساعدك برفع الغطاء؟

رفع فيلبس الغطاء، وعندئذ انطلقت مْن فمه

صيحة وجلس يحدّق بوجه شاحب كلون الطبق الأبيض الذي ينظر إليه، وقد بدت في وسطه لفافة من الورق الرمادي قام برفعها وراح يطيل النظر إليها، ثم أخذ يرقص بجنون في الغرفة وهو يصرخ من الفرح، وبعد ذلك سقط على كرسيه وهو يترنح بشدّة!

قال هولمز مهدّئاً وهو يربّت على كتفيه: هيّا يا رجل! كان من الخطأ مفاجأتك بهذا الشكل، ولكن واطسون سيخبرك أنني لا أستطيع مقاومة بعض الإثارة.

خطف فيلبس يد هولمز وقبّلها ثم صاح قائلاً: باركك الله! لقد أنقذت سمعتي.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قال هولمز: حسناً، ألا تعرف أن سمعتي كانت أيضاً على المحكّ؟ أؤكد لك أنني أكره الفشل في أي قضية كما هو الوضع بالنسبة إليك حين تخطئ في تنفيذ مهمة من المهمات.

وضع فيلبس الوثيقة الثمينة في جيب معطفه الأعمق وقال: لا أجرؤ على مقاطعة إفطارك أكثر من ذلك، بالرغم من أنني أتحرّق شوقاً إلى معرفة كيف أحضرتَها ومن أين.

تجرّع شيرلوك هولمز كوباً من القهوة ثم نقل اهتمامه إلى البيض واللحم، وبعدها قام فأشعل غليونه وجلس على كرسيه وقال: سأخبرك ماذا فعلت في البداية، ثم أخبرك فيما بعد بالطريقة التي استخدمتُها. بعد أن تركتكما في المحطّة ذهبت في نزهة جميلة وسط مناظر الريف الساحرة حتى وصلت إلى قرية صغيرة جميلة اسمها ريبلي، حيث شربت الشاي في أحد الفنادق الصغيرة، ثم ملأت قارورتي وأخذت لفافة فيها بعض الشطائر. بقيت هناك حتى المساء، وبعد ذلك توجهت إلى ووكنغ مرة أخرى حيث وجدت نفسي في الطريق العام خارج منزل «برياربري» قبل الغروب تماماً، وقد انتظرت حتى أصبح الطريق خالياً، وإن كنت أعتقد أنه لا يكون مزدحماً في أي وقت، وعندها تسلقت السور إلى حديقة المنزل.

هتف فيلبس قائلاً: لا بدّ أن البوّابة كانت مفتوحة.

قال هولمز: أجل، ولكن لي أسلوباً خاصّاً في هذه الأمور. لقد قمت باختيار ذلك المكان حيث توجَد شجرات الصنوبر الثلاث، واتخذت منها ستراً فوقفت خلفها دون أدنى فرصة في أن يراني أحد، ثم ربضت بين الشجيرات في الناحية الأخرى، وبعد ذلك زحفت من واحدة إلى أخرى حتى وصلت إلى الشجيرات الوردية الموجودة في الناحية المواجهة لغرفتك مباشرة، وجثمت هناك مختبئاً أنتظر التطورات. لم تكن الستائر مغلَقة في غرفتك، ولذلك استطعت رؤية الآنسة هاريسون وهي جالسة تقرأ بجوار الطاولة، وقد كانت الساعة العاشرة إلا ربعاً عندما أغلقَت كتابها وأسدلت الستائر ثم غادرت الغرفة، وسمعتها وهي تقفل الباب وتأكدت أنها قد أدارت المفتاح في القفل.

هتف فيلبس: المفتاح!

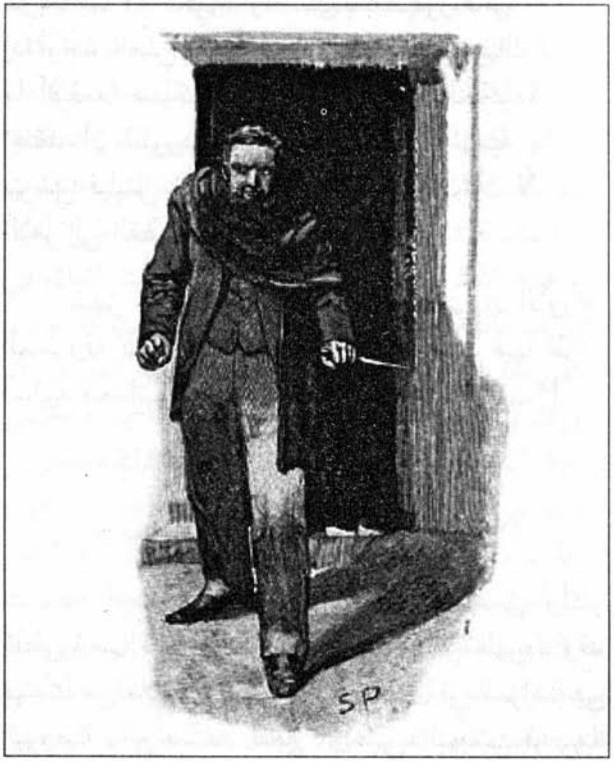
قال هولمز: نعم، فقد أعطيت الآنسة هاريسون تعليمات بأن تقفل الباب من الخارج وتأخذ معها المفتاح عندما تذهب إلى النوم، وقد نفّذت أوامري بحذافيرها، ولولا تعاونها لما كان ممكناً أن تحصل على تلك الأوراق في جيب معطفك. حسناً، ذهبت هي وأطفأت النور وبقيتُ أنا قابعاً وسط الشجيرات

الوردية. كانت ليلة لطيفة، وبالرغم من ذلك كانت المراقبة مملّة جداً، وإن كان يخالطها شعور بالإثارة. ولكن الانتظار كان طويلاً جداً، وكانت ساعة الكنيسة تدقّ في ووكنغ كل ربع ساعة، وقد ظننت أكثر من مرة أنها توقفت. على أية حال، أخيراً وفي نحو الساعة الثانية صباحاً سمعت فجأة صوتاً خفيفاً للسان قفل يُدفَع إلى الخلف وصرير مفتاح، وبعدها بدقيقة فُتح اب الخدم وخطا السيد جوزيف هاريسون إلى الخارج ي ضوء القمر.

هتف فيلبس: جوزيف!

استطرد هولمز: كان مكشوف الرأس وقد ألقى لى كتفيه معطفاً أسود ليستطيع إخفاء وجهه في لحظة ا شعر بالخطر. مشى على أطراف أصابعه في ظل جدار، وعندما وصل إلى النافذة وضع سكّيناً خلال سق الموجود بين مصراعَي النافذة فدفع المزلاج إلى على وفتحها، وقد كنت أحظى برؤية ممتازة لداخل رفة ولكل حركة من حركاته، فقد أشعل الشمعتين ى رفّ المدفأة، وعندها بدأ برفع زاوية السجّادة جودة بجوار الباب، ثم توقّف لينتزع قطعة مربّعة خشب الأرضيات كتلك التي يتركونها ليتمكن اكون من الوصول إلى أنابيب الغاز، ومن ذلك خبأ سحب لفافة من الورق، ثم أعاد قطعة الخشب

إلى مكانها وسوّى السجّادة، ثم أطفأ الشمعتين، وبعدها خرج إليّ مباشرة حيث كنت أنتظره خارج النافذة. حسناً، يبدو أن السيد جوزيف أكثر شرّاً مما اعتقدت، فقد هجم عليّ بسكّينه فاضطُررت إلى ضربه وإلقائه على العشب مرتين، وجُرحت مفاصل أصابعي



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قبل أن أتمكن منه، وقد كانت عينه الوحيدة التي كان قادراً على أن يرى بها بعدما انتهينا تنطق بالشرّ، ولكنه استمع إلى صوت العقل وتخلّى عن الأوراق، وعندما حصلت عليها تركت الرجل يذهب، ولكني أرسلت مواصفاته الكاملة إلى فوربس هذا الصباح، فإذا كان سريعاً بما فيه الكفاية وأمسك بالعصفور فخير له، أما إذا وجد العشّ خالياً قبل أن يصل إلى هناك (وهذا ما أتوقعه) فسيكون ذلك في مصلحة الحكومة؛ فأنا أعتقد أن اللورد هولد هورست من ناحية والسيد بيرسي فيلبس من ناحية أخرى يفضّلان أن لا يصل الأمر إلى القضاء.

شهق عميلنا قائلاً: يا إلهي! هل تعني أن الأوراق المسروقة كانت في نفس الغرفة التي كنتُ فيها طوال أسابيع العذاب العشرة الطويلة؟ كل هذا الوقت؟!

- هكذا كان الأمر.

- وجوزيف... جوزيف شرير وسارق؟!

- أخشى أن شخصية جوزيف أعمق وأكثر خطورة مما قد نحكم به عليه من خلال مظهره، وقد فهمت من كلامه هذا الصباح أنه غارق في المراهنة في البورصة وأنه مستعدّ لفعل أي شيء ليحسّن فرصه، ولأنه رجل شديد الأنانية فقد استغل الفرصة التي

سنحت له ولم يردعه حرصه على سعادة أخته أو سمعتك.

غرق بيرسي في كرسيه وقال: إن رأسي يدور؛ لقد أذهلتني كلماتك.

علّق هولمز بأسلوبه التعليمي قائلاً: الصعوبة الرئيسية في قضيتك كمنت في حقيقة وجود الكثير من الأدلّة، ولكن الأدلّة الحيوية طُمست بالأدلّة التي لم يكن لها علاقة بالأمر، فمن بين كل الحقائق التي قُدِّمت لي عمدت إلى اختيار تلك التي اعتقدت أنها أساسية ثم رتّبتها معاً في نظام محكَم حتى أعيد بناء هذه السلسلة من الأحداث. لقد بدأت أشك في جوزيف بالفعل حين عرفت حقيقة أنك كنت قد نويت السفر معه في تلك الليلة، ولذلك كان من الطبيعي أن يزورك وهو في طريقه إلى المحطة لأنه يعرف مبنى وزارة الخارجية معرفة جيدة. وقد زادت شكوكي عندما عرفت أن شخصاً ما كان متلهفاً جداً لدخول غرفة نومك، ولا تنسَ أنك قصصت علينا من قبل أنك أخرجت جوزيف من نفس الغرفة حين حضرتَ مع الطبيب، وعندها تحولت شكوكي كلها إلى يقين، لا سيما وأن محاولة اقتحام الغرفة كانت في الليلة الأولى التي غابت فيها الممرّضة، ويدل هذا على أن المتطفل كان على دراية تامّة بما يجري في المنزل.

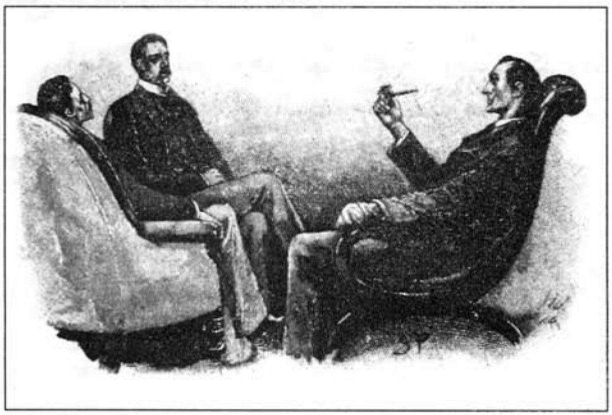
- كم كنت أعمى!

استطرد هولمز: حقائق القصة كما فهمتها هي أن جوزيف هاريسون دخل إلى المكتب عن طريق باب شارع تشارلز، ولأنه يعرف طريقه فقد اتجه رأساً إلى غرفتك بعد لحظة من مغادرتك لها، وعندما لم يجد أحداً هناك سارع برنّ الجرس، وفي اللحظة ذاتها وقعت عيناه على الورق الموجود على المكتب، حيث أظهرَت له لمحة سريعة على الأوراق أن المصادفة قد وضعت في طريقه وثيقة رسمية ذات قيمة عظيمة، فوضعها في جيبه بسرعة وذهب، ثم انقضت دقائق قليلة -كما تذكر- قبل أن ينبّهك البوّاب إلى الجرس، وكانت تلك الدقائق كافية ليهرب اللص. اتجه جوزيف إلى ووكنغ في أول قطار، وبعد أن فحص غنيمته وتأكّد أنها ذات قيمة هائلة بالفعل قام بإخفائها في مكان اعتقد أنه مكان آمن جداً، وكان ينوي استرجاعها خلال يوم أو اثنين ليحملها إلى السفارة الفرنسية أو إلى أي جهة يمكن أن تمنحه سعراً كبيراً. ولكن عودتك المفاجئة تسببت في خروجه من غرفته دون سابق إنذار، ومنذ ذلك الوقت بقيت الغرفة مشغولة بك وبالممرضة مما منعه من استعادة كنزه. لا بدّ أن الموقف كان عصيباً بالنسبة له، وعندما وجد فرصته أخيراً حاول اقتناصها، ولكنك أربكته بيقظتك.

هل تذكر أنك لم تأخذ جرعتك المعتادة من الدواء المنوِّم في تلك الليلة؟

- أذكر.

- أعتقد أنه قد تدبّر الأمر لجعل هذه الجرعة فعّالة واعتمد تماماً على أنك ستكون فاقداً الوعي ليعيد الكرّة، وقد فهمت أنه سيكرّر محاولته بالطبع حينما تسنح له الفرصة الآمنة، وكانت مغادرتك الغرفة هي الفرصة التي أرادها، ولهذا أبقيت الآنسة هاريسون في الغرفة طوال اليوم لكي لا يسبقنا، وبعد ذلك أوحيت إليه بأن الطريق خالٍ فيما بقيت أنا في الحراسة كما وصفت. وكنت أعرف أن الأوراق في الغرفة على الأغلب، ولكني لم أرغب بإتلاف



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

خشب الأرضيات والجدران وأنا أبحث عنها فتركته يأخذها من المكان الذي أخفاها فيه، وهكذا وفّرت على نفسي مشقّة البحث الطويل. هل بقي أي سؤال يحتاج إلى جواب؟

سأل قائلاً: لماذا حاول الدخول من النافذة في المرة الأولى في حين أنه كان يستطيع الدخول من الباب؟

- لكي يصل إلى الباب كان لا بدّ أن يمر بسبع غرف نوم، ومن الناحية الأخرى كان يستطيع الخروج إلى المرج العشبي بسهولة. هل من شيء آخر؟

سأل فيلبس: ألا تعتقد أن السكّين كان مجرّد أداة لفتح النافذة وأنه لم ينوِ القتل؟

أجابه هولمز وهو يهزّ كتفيه: ربما، كل ما أستطيع تأكيده هو أن السيد جوزيف هاريسون لا يمكن الوثوق به.

* * *

-تمّت-

23

The Adventures of Sherlock Holmes



The Adventure of the Naval Treaty



مغامرات

شيرلوك هولمز

تأليف: آرثر كونان دويل

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-3389-0
9782195733897